قط عصري

بقفزات رشيقة انطلقتُ خلف الهرين .. قاداني إلى حيث لا أدري .. كانا على علم بتفاصيل حكايتي .. تحدثنا أثناء جولتنا في أرجاء المدينة .. طافا بي معالمها .. لم تغب عن ذهني صورة الوطن .. ظل ذهني يقارن بين ما أراه الآن وما كنت أعيشه في أرض الوطن .. كانت المقارنة ظالمة بكل المقاييس ..

رأيت وجها جديدا وعالما فريدا .. اكتشفت أن للقطط حياة أخرى يمكن أن تعيشها بعيدا عن أكوام القمامة .. بل في أرقى المدن العصرية وبطريقة حضارية ومتقدمة ..

تحسرت على أبناء جلدتي هناك وهم يعيشون على تلك الأكوام من القذارة في حين قطط هذا المكان تعيش حياة أقل ما يمكن وصفها به أنها نظيفة .. لم أخفِ عليهما حسرتي وأسفي على وطني وعلى بني وطني .. طالت جولتنا فنال مني التعب .. تعب الرحلة وتعب المقارنة .

عدنا إلى الحي الذي انطلقنا منه .. لم تكن بانتظارنا .. رغم أن نافذتها كانت مفتوحة ومصابيح البيت لا تزال مضاءة .. قاداني إلى مكان آخر قريب من بيت قطتي اللطيفة .

جلسنا وتناولنا بعض الطعام الشهي .. أعلمني الهر اللطيف إني سأعيش معهما هنا إلى أن أتدبر أمري .. حمدت لهما صنيعهما كثيرا.

سألني اللطيف عن انطباعي عما شاهدتُ في رحلتنا ..

أخبرتهما عن حلمي أن أرى قطط وطني تعيش في مثل هذا النعيم !! .

ضحك الهر الآخر من قولي واستهزأ من حلمي .. بينما رفيقه اللطيف شجعني كثيرا ..

خرجنا إلى الشرفة .. تأملت معهما ليل المدينة بكل آمان هذه المرة .. أحسست بقدرتي على العيش في مثل هذه الأجواء ..

❖❖❖

بقينا وحدنا .. أنا والقط اللطيف ..

تحدثنا كثيراً .. عن قطط المدينة الجميلة وعن مواصفاتها وما تتمتع به من دلال وجلال في هذا الوطن .. وعن العلاقات بين القطط ذكورها وإناثها .. بل حدثني بحماسة عن كيفية الارتباط بقطة جميلة من هذا الوطن .. بل زاد وحثني على البحث منذ الغد عن أليفة تؤنس وحشتي لتسهل عليّ الحياة في الغربة ..

حدثني أيضا عن تلك القطة المنقذة .. سألته عن نوع العلاقة التي تربطهما ببعضهما .. فرحت حين علمت أنهما أصدقاء طفولة ولا يفكران بالارتباط ببعضهما .. قال : أنهما عاشا في بيتين متجاورين في نفس الحي .. كانت بين أهل البيتين علاقة صداقة .. كانا يتبادلان الزيارات بموجب هذه الصداقة .. التقيا في إحدى هذه الزيارات وتعارفا وترعرعنا سوياً .. هذا كل ما في الأمر .. لا أعلم لما شعرت براحة حين علمت ذلك .

سألني هري اللطيف تلك الليلة سؤالين محيرين ..

أما الأول فقد أحسنت الإجابة عنه لسهولته فقد كان السؤال أيضا بسيطا ومتوقعا هل وطنك بعيد من هنا ؟

تحسرت وتنهدت قبل أن أجيبه .

بينت له أن مشكلة وطني لا تكمن في بعده بحسابات المكان فقط .. بل بحسابات الزمان أيضا ..

أما السؤال الثاني فكان صعب الإجابة عليه في تلك الليلة

قاطعته القطة الشابة بحماس :

- ماذا كان السؤال ؟
- ماذا ستفعل من أجل قطط وطنك ؟

عادت الذبابة لإزعاجهم .. عودتها نبهتهم لشيء مهم غفل عنه ثلاثتهم .. إنه الوقت الذي داهمهم دون شعور منهم بزحف الظل بعيدا عن جدارهم المتهالك ..
غادره الشابان على أمل باللقاء.

❖❖❖

ذلك الصباح كان جميلا على عكس سابقيه .. سحب متناثرة في سمائه .. نثرت ظلالا طيبة على أرض الوطن الخلاء .. سار الكهل يمشي الهوينا في أرض أسلافه .. كمن يبحث عن تفاصيل جديدة ليرويها لضيفيه ..
لم يتأخرا عن الوصول .. تبادلوا تحايا الصباح .. لم يحتكموا إلى جدارهم كما اعتادوا .. سارا على جانبي الكهل .. واصل سرد تاريخه المشوق :
" بعد أيام اكتشفتُ الوجه الحقيقي لتلك المدينة .. أكثرت من التجوال في شوارعها .. تعمقت في أزقتها .. تخلصت من حذر القطط .. لم أعد بحاجة لذلك في تلك المدينة .. لا أحد هنا يعادي القطط ولا غيرها من المستضعفين .. حتى الكلاب هنا بدت أليفة ورقيقة .. ونظيفة !

هالني وراعني كثرة ما اكتشفت .. اكتشفت أننا نعيش في المكان الخطأ .. بل الزمان الخطأ .. والطريقة الخطأ .

تعيش قطط تلك المدينة حياة مترفة مرفهة منعمة .. ربما هذا الوصف لا يعني لكما شيئا فأنتما أبناء هذه الحياة .. لكن الأمر يختلف لقط كان يعتقد أنه يعيش .. فاكتشف أنه يتنفس فقط ..

اكتشفت أماكن تُحترم فيها القطط .. هم يطلقون عليها قطط مشردة أو لاجئة أو ما شابه .. لكنها تحظى هناك برعاية وأمان وكثير من الحرية .. ليس هذا فحسب .. بل تتوفر لها في تلك الأماكن كل ضروريات حياتها ..هذا عدا أن الطعام متوفر في كل مكان دون الحاجة للعبث في أكوام القذارة للوصول إلى لقمة أقل ما يقال عنها أنها تسد الرمق .

بكيت بحرقة على وطني الذي ضيعه نزق قط أعور ..

اكتشفت أن والديّ كانا يخططان للوصول لهذه الحياة التي لم تعيها قطط وطننا بعد .. كان خيالها أضعف من أن تتخيل الحياة بشكل أفضل .

اتخذت قراري :

" لابد من الوطن ولو طال الصراع والنزال ".

❖❖❖

لم أعد بحاجة لدليل في المدينة .. صرت أعرف الكثير من مجاهلها .. في غمرة بحثي في طيات المدينة التي تبوح لي في كل يوم بجديد كنت أجهله .. فقط عليك ان تكون حذراً – وهذا ما لا ينقصني - .. تعرفت على قطط كثيرة .. قادمة من أماكن شبيهة بوطني .. أحسست معهم بألفة الغريب للغريب .. تشابهت ظروفنا التي عشناها في أوطاننا .

لم يخفوا عني رغباتهم وأهدافهم .. كان ماضينا متشابها وكذلك حاضرنا .. لكن مستقبلنا لم يكن كذلك .

كانت أهدافهم بسيطة وأغراضهم تافهة ..

تلخصت في أمرين : لقمة هنية وقطة أليفة .

كان همي أكبر من ذلك بكثير ..

لم أقطع تواصلي واتصالي بهريّ الصديقين .. كنتُ التقيهما بين الفينة والأخرى بعد أن استقللت بسكني ومعيشتي .. لم أنس شكرهما في كل مناسبة .. حتى ذلك الهر الخشن لم يعد كذلك .. خصوصا بعد أن تزوج وارتبط بهرة تناسب طباعه في مكان يبعد عن إقامتي ..

لكن علاقتي بتلك القطة المنقذة كانت مختلفة تماماً .. شعرت منذ البداية أن ما أشعر به نحوها ليس مجرد عاطفة عابرة أو نزوة طائشة أو عرفانا بالجميل ..

كانت لقاءاتي بها في البداية على فترات متباعدة ولأوقات قصيرة ..

❖❖❖

تقاربت المسافة الزمنية بين لقاءاتنا .. طالت لحظات اللقاء التي كانت للتحية والسؤال عن الأحوال .. أصبحت دقائق تزداد طولا بعد كل لقاء ..

حدث ما كنت أتمناه وأرجوه وأطلبه .. فالقطط المترددة تخسر كل شيء .. تخليت عن خجلي ذات مساء وبحت لها بمكنون سري .. وبثثت لها لواعج قلبي .. أفصحت لها عن رغبتي .

كانت من الرقي بمكان ..

لم تصدني ولم تردني ولم تردعني ..

المشكلة أنها لم توافقني ولم تجبني بحقيقة ما تحس به نحوي .. اكتفت بابتسامة .. كانت من الغموض لتفسر بكل شيء عدا الموافقة .

غبت عنها أياما قضيتها في تسكع واستكشاف المدينة والنهل من كل تجاربها ورسم صورة دقيقة لمستقبلي وبني جلدتي .. في تلك الفترة قررت قراراً اعتبرته مصيرياً ..

- كان عليّ أن أقود التغيير .

قال الفتى في حماسته :

- قرار صعب وجريء .

ردت قطته الشابة :

- لكنه صائب وضروري .

علق الكهل :

- لم يكن الأمر سهلاً .. كنتً بين خيارين أن نكون أو لا نكون ..

أضاف :

- ما كان لمثلي أن يستسلم بعد كل هذه المعناة التي تجرعتها وتجرعها آبائي من قبل .

❖❖❖

واصل القط الكهل سرد الذكرى :

- في إحدى جولاتي الكثيرة .. لمحته في زقاق ضيق .. كان يتلصص على قطة غافلة .. عرفته .. إنها عادته القديمة يمارسها في كل مكان .. تتبعته بحذر ... خشيتُ أن يفر مني .. فاجأته بعد أن اقتربت كثيراً منه .. لم يعد أمامه مفر .. جمد في مكانه .. أخذته المفاجأة .. لم يكن يتوقع أنه سيلقاني ذات يوم .

سأل القط الفتيّ في لهفة بعد أن صمت العجوز ليلتقط بعض أنفاسه بعد أن أنهكه السير الطويل .

- من يكون ؟

لم يجب القط الكهل عن تساؤله .. بل سار نحو الجدار .. استلقى في ظله .. أخذا موقعهما كالعادة .. راقب الأفق البعيد بعينيه الواهنتين .. أجاب بعد أن استرجع تنفسه الطبيعي :

- إنه هرٌ بائسٌ من أرض الوطن ..

- يا لها من مفاجأة !

- نعم .. اصطحبته معي بعد أن استفاق من ذهوله .. كان حديث الوصول للمدينة .. سألته عن أحوال أهل الوطن وزعيمها .. هالني ما أفادني به .

حكى لي بحرقة عن تغطرس الزعيم وكيف صار القتل أداته اليوم في سياسة أمر القطط .. أخبرني بفرار القطط اليومي طلباً للنجاة من جحيمه .. حدثني أيضا عن اتخاذه لتدابير جديدة تحول بين القط وبين الفرار في طلبهم للحياة بعيداً عن سلطانه وسطوته .. بث عيونه بين القطط .. فلم تعد هناك ثقة بين القط وأخيه ولا بين القط وذويه ولا بين القط وقطته .. الكل عيون على الآخرين .. صار الزعيم عدو القطط الأول .. لم تعد الكلاب تحتل تلك المرتبة صارت أكثر لطفاً ورحمة منه وأقل عدوانية تجاهها .

حدثني بأسى أن الأمم المجاورة لنا في الوطن تعيش وترتع في خيراته في أمن وسلام " .

قاطعه الشاب بحماس :

- هذا ديدن الطغاة في كل مكان .

" أخبرني عن نجاح بعض قطط الوطن في الوصول إلى هذه المدينة قبله .. منذ تلك الليلة قررنا أن نعمل من أجل الوطن .. حدثني كذلك عما عاناه القط العجوز من ضيم الزعيم بعد أن صار حكيماً للقطط .

سألت القطة الشابة في لهفة :

- ماذا عن الشاعر ؟
- سألته عنه فقال أنه صار مقعدا بعد أن قطع الزعيم له قدماً .
- ما سبب ذلك ؟
- صارت قصيدته الشهيرة على كل لسان .. بل قيل أنها صارت كابوساً يقض منام الزعيم .
- يقض منامه ؟
- نعم قال انه صار يستفيق مرعوبا من نومه بسببها .. لذلك قرر معاقبة الشاعر من جديد بقطع ساقه وذيله .
- يا له من ظالم .

كان أول عمل قررنا البدء به .. هو البحث عن أبناء وطننا المنتشرين في المدينة .. ثم إيجاد وسيلة لإخراج الشاعر والقط العجوز من أرض الوطن .

نعيم مقيم في أرض القطط

فكان وبالا عليها القطط

صبرنا على عيش قحط

وظلم وبؤس وشطط

فلا حل لنا سوى في المواء

مواء مواء مواء مواء .